خواطـــر

للأستاذ فليكس فارس

— ١ —

« لم يكد صانع الأحذية السيد فيكاني السوري العربي يصنع أحذية عقيلة الرئيس روزفلت حتى اهتمت البلاد كلها باختراعه فأصبح الرجل الفاشل المعدم بالأمس « رجل الساعة في الصناعة » تنهال الطلبات عليه من كل صوب ، وتحوّل معمله لتصليح الأحذية العتيقة معملاً كبيراً يجتذب ملايين الزبائن. وهكذا حقق « الصغير الفيكاني » في الولايات المتحدة ما حلم به في قريته منذ ثلاث وأربعين سنة في وطنه الثاني » (استيفن راوس)

هذه كلمة من إحدى كبريات جرائد الولايات المتحدة موقعة بإمضاء كاتب من أشهر الكتاب في العالمين الجديد والقديم

وقد وقعنا على مقال في مجلة (المناهل) التي تصدر في مدينة بوتس إيرس عن قصة الفيكاني فاخترنا تلخيصها :

« قدم السيد الفيكاني من سوريا وقد ضاقت بوجهه سبل الارتزاق من حرفته ،فنزل في بلدة « كربندال » حيث اتخذ له دكاناً لترقيع أحذية الفقراء فكان دخله يكاد لا يفي لتأمين معيشته .

أقرب إلى الإجمال في بيانه . وقيوده تحول دون الإيضاح الذي يملكه الناثر

فطبيعة النظم تبيح للشاعر شيئاً من الغموض والتقديم والتأخير لا يباح في النثر ، ولكن الغموض ليس مستحسناً في منظوم ولا منثور

وقال ابن خلدون في الفرق بين الشعر والنثر :

واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد المختص بالخطابة ، والدعاء المختص بالخطابات وأمثال ذلك

وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام القافية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن »

عبد الوهاب عزام

ولكنه لم يستسلم للضيم وأخذ يفكر ويجرب على نور اختباراته في صنعته حتى وفق أخيراً إلى اختراع قالب لحذاء يتمتع مستعمله بالراحة التامة مهما كان شكل قدميه ومهما تجشم من مشقة السير أو الوقوف ، وسجل اختراعه. وما عتم حتى أقبل أهل القرية على استعمال أحذيته ؛ فابتسم له الحظ ، إلا أنه بقي يزاول عمله بيديه لعدم وجود رأس مال كاف يستعين به على بناء معمل كامل العدة إلى أن وقع نظره يوماً على صورة للسيدة إليونور عقيلة الرئيس روزفلت فتأكد من ملامح وجهها أن حذاءها يؤلم رجليها ، فقصد العاصمة . وهناك بدأ من جهة يتسقط المعلومات اللازمة لتهيئة الحذاء الذي سيفتح له باب الشهرة والثروة ، ومن جهة أخرى يراجع ذوي الشأن للحصول على مقابلة السيدة الأولى حتى بلغ القصد بعد انتظار دام تسعة أشهر. وما مثل لديها وعرض الحذاء المبتكر حتى انتعلته وسارت تتخطر في القاعة جذلة راضية وهي ترعد عبارات الثناء ؛ ثم أوصته بصنع أزواج عديدة فكان هذا الطلب فاتحة شهرة الرجل وباب ثروته »

* * *

ليتسم من يشاء لهذه القصة من الشبيبة المثقفة الحالمة بتربع دسوت الوزارات والتهافت على باطل الأمجاد وكاذبات الأماني ، المحتقرة لكل عمل لا تدور به عناصر التحكم بالناس والترفع عن كل حرفة ، فإن من هذه الشبيبة فئة علمتها عثرات الآمال أن تعتمد على نفسها وتنطلق في ميادين الأعمال الحرة من أي نوع كانت ، وهذه الفئة تباهي بالإسكاف الوضيع الذي عرف أن يجعل السيدة الأولى في أعظم الأمم ثروة وعدداً وجهداً تشهد بفضله وتثني عليه لأنه ابتكر طريقة تريح الناس من عناء تحملوه عيناً حتى كشف سره وهو لا يحمل شهادة الفلسفة بل لعله أمي لا يعرف من العلم شيئاً

ليس من عمل حقير في العالم إلا العمل الذي تديره يد متواكلة بتفكير حقير ...

إن في حرفة الكناسة مجالاً للعبقرية، كما أن في مهمة إدارة الأمم مجالاً للحماقة والغرور . ولو أن كل فرد في هذه الأمة اتجه إلى إتقان عمله بذلاً فيه كل جهده لبدت طلائع الرقي بين الطبقات الوضيعة قبل أن تبدو بين الطبقات العليا

إن حياة الأمم تبدأ بانتباهة الفرد وتنشوء فكرة التضامن

بين جماعاته الصغرى . فلو عملت الفئة الناهضة المثقفة فى هذه البلاد على إثارة هاتين القوتين فى المزارع والقرى الصغيرة لقضت على التواكل والخمول ولرأينا بدلاً من الشعب الذى يتوقع من حكومته كل شيء، شعباً واثقاً من نفسه يقيم كل شيء على سواعده

أما يكفى الأمة لتحيا أن يكون حاكموها منها ولها وأن يعدل القضاء بين أفرادها ؟

— ٢ —

كلمة قد تجئ ثقيلة على بعض الأسماع، وقد يتلقاها من توجه اليهم بالصمت والتبرم ولكنها كلمة حقّ الجهر بها علينا لأننا اعتقدناها حقاً

لقد كثر عدد الكتاب والشعراء الذين يملكون البيان الصحيح ولكن قل بينهم من ينطق بهذا البيان بلهجة العربية الأصلية محررة من كل لكنة دخيلة أو رطانة أجنبية

وإن نحن أردنا تصنيف اللهجات التى تصدها فصاحة اللغة وتتململ منها مقاطعها وحروفها وحركاتها وسكناتها أمكننا أن نردها إلى أصلين : اللهجات التى أدخلتها العامية على الفصحى، فمنها ما حولت الجيم إلى جيم أفرنجية تتنافر وسائر الحروف الحلقية، والألف إلى ألف فارسية تخرج مفخمة من الخياشيم كأن عليها « أكسانير كونفلكس» مزدوجة[1]، ومنها ما حسبه بعض المتحذلقين نهاية الإبداع بالاحتفاظ بالحركات النحوية فى أواخر الكلمات وبخاصة عند الوقف فتأتى الحركة نافرة كأنها الشجى فى حلق المتكلم أو كالقرار الموسيقى الافرنجى المقطوع على بقية كذنب كلب الراعى

أما الأصل الثانى فرطانة جميع لغات الدنيا نازلة منزلة الضيف غير المحتشم على مخارج حروفنا وموسيقى مقاطعنا

إن الفرنسى عند ما يتكلم بلغة أجنبية لا يكاد يتلفظ بجملة واحدة حتى تسمع لغة أمه نافرة بغتة من فمه مشوّهة اللغة الأجنبية، وهكذا الإنجليزى والألمانى والإيطالى الخ ..

أما نحن أصلح الله عيب التقليد فينا ، فإننا نتكلم لغات العالم محتفظين لكل منها بفصاحتها، وبيننا من يزنّ الانكليز والفرنسيين بنقاء لهجته ، غير أن الكثيرين ممن تلقوا العلم فى المدارس الأجنبية أو تسنّى لهم أن يمضوا ولو مدة صيف واحد فى أوربا تُشلّ عضلات ألسنتهم أو تتشنج أعصابها فيأتون السامعين بعجائب الفصاحة وغرائبها حتى ليصعب عليك لأول ما يطلق الخطيب أو الشاعر صوته فى الراديو أو على المنبر أن تتميز اللغة العربية فيما يقول ، ولكم من عربى ابن عربى بيننا تحسبه أحد الآباء القادمين من فرنسا أو أحد المرسلين من انكلترا ...

* * *

دخلت امرأة أجنبية إلى مخزن لتشترى قماشاً فطلبت من المستخدم أن يريها بضاعة شرحت أوصافها على قدر ما تسمح لها معرفتها بالعربية فأوردت ضمير المخاطب بدل ضمير الغائب وقلبت المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً ، واستبدلت بالفاء والعين والقاف حروفاً من لغتها فإذا بالمستخدم العربى يتقدم مدلياً ببيان طويل عما لديه من الأصناف باللغة التى خوطب بها دون ارتكاب خطأ واحد فوقفت السيدة تتفرسه قائلة :

— أعجيب هو انتى من مملكت بتاع أنا .

وإذ أجاب المستخدم نفياً أطلقت لسانها بالسباب والشتم وخرجت من المخزن معتقدة أن حضرته يهزأ بها ويقلدها ليحتقرها

مسكين هذا المستخدم، إنه ساير الأجنبية غلقاً بقصد تصريف بضاعته ، فأية بضاعة يريد تصريفها بعض المقلدين بيننا حتى من رجال الأدب ، وأى معنى لهذه المسايرة السخيفة التى تضحك الأجانب أنفسهم .

بقيت كلمة لن أدعها عالقة بقلمى ، وإن كنت أعلم أنها ستغضب كل من سطت العادة على ذوقه سواء أكان سليماً أم غير سليم .

من أية لغة اقتبس حرف « أ » فى كلمة « أب » ؟ وليس فى لغات العالم ما يشبه هذا الصوت الذى تحسبه قرعة دف فلا يمكن كتابته إلا إذا خلقت ألفاً جديدة تتركب من سائل القاف وسحوق الضاد وشيء من صيحة الاستنفار ثم أتيت بالباء مشددة بأربع شدات، وقد لا نصل بهذا الإملاء إلى تمثيل خشونة هذه الكلمة وثقلها مع أنها من ألطف ألفاظ العربية ومن أروعها تمثيلاً لعطفة الطفل على والده .

وأخيراً أتمنى لو عمل هؤلاء المصابون بداء الرطانة والحذلقة على الاستشفاء بإصغائهم إلى فصحاء هذا الجيل كالأستاذ الأكبر المراغى والأستاذ أمين الخولى مثلاً فى النثر ، وكالأستاذ الجارم والأستاذ أحمد رامى فى الشعر ، فإن تصحيح اللغة على الألسن ليس بأقل أهمية من تصحيحها فى الجرائد والكتب

(الاسكندرية) فيلكس فارس

(١) ومنها التاء المربوطة تلفظ تاء ساكنة عند الوقف بدلا من التلفظ بها هاء.